من امراء دولة من سوء ادبه في الحضرة وخروجه عن معتاد الواجب وانتشار مفسدة
اصحابه وكان وزير الخليفة اذ ذاك قوام الدين ابو القسم علي بن صدقة بن علي بن
صدقة كتب عن الخليفة الى السلطان مسعود عدة كتب تشتمل الانكار على مسعود البلالي
علي حاصل رمنه فلم يرجع جواب فلما قلد عون الدين بن هبيرة كتابة ديوان الزمام خاطب
الخليفة في مكاتبة السلطان مسعود بالقضية فوقع اليه كان الوزير كتب في ذلك
عدة كتب فلم يجيبوا فراجع عون الدين في ذلك سواله الى ان اجيب فكتب من انشائه
رسالة وهي طويلة فاضربت عن ذكرها وحاصل الامر فيها انه دعا له واذكره ما كان من اسلافه
يعاملون الخلفاء به من حسن الطاعة والثناء ودب معهم والذب عنهم ممن يقتات عليهم
وشكي من مسعود البلالي وانه كاتب في ذلك عدة دفعات وما جاء جواب واطال القول
في ذلك وكان هذا في سنة اثنين واربعين وخمسماية في شهر ربيع الاخر فما مضى على ما
قيل حتى عاد الجواب بالاعتذار والذم لمسعود البلالي والانكار لما اعتمده فاستبشر
المقتفي بالله باشارة عون الدين وعظم سروره بذلك وحسن موقع عون الدين من
قلبه ولم يزل عنده مكينا حتى استوزره قال المصنف وكان من جملة اسباب وزارته
في سنة ثلث واربعين دخل الى بغداد الامير ابن السعودي صاحب التحفه وهو صنيع الملك
ومن كوا السلطان وقصدها في جموع كثيرة وصدر منهم فتن عظيمة تضمنتها التواريخ
فشرع الوزير قوام الدين ابن صدقة في تدبير الحال فلم يحقق مسعاه فحينئذ استاذن
عون الدين الخليفة في امرهم فاذن له في ذلك فخاطب الخارجي على الخليفة وشرع في
التدبير في ذلك حتى كف شرهم ثم قوي عليهم حتى نهب العامة اموالهم وحريمهم
بهذه الحال لوقع ابن هبيرة ووضع الوزير ابن صدقة فانه عندما انقضى هذا المهم استدعى
الخليفة بالله عون الدين لمطالعته على يد امير من امراء الدولة فتبين بقراءته لها
التباشير في اسرته فركب الى دار الخلافة في جماعته وتسامع الناس بوزارته وجاء الخلق
الى باب الحجرة استدعي فدخل وقد جلس له المقتفي بيمنة التاج فقبل الارض وتحدثا ساعة
بما لم يحط به غيرهما علما ثم خرج وقد جهزوا له التشريف على عادة الوزراء ثم استدعي ثانيا
فقبل الارض ودعا واعجب الخليفة ثم انشد

ساشكر عمرا ما تراخت منيتي ... ايادي لم تمنن وان هي جلت
راى خلتي من حيث يخفى مكانها ... فكانت بمرأى منه حين تجلت

قلت وهذان البيتان لابرهيم بن العباس الصولي لم يعده ذكره وهي ثلثة ابيات والثاني
منهما بعد الاول فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت
ولما انشد عون الدين هذين البيتين غير بعض البيت الثاني منهما فان الشاعر قال
وكانت قذى عينيه حتى تجلت فما رايته يخاطب الخليفة بهذه العبارة فغيره
تأدبا ثم ان عون الدين خرج له حصان ادهم سابل الغرة محجل وعليه من الحلي ما جرت
به عادتهم مع الوزراء والشرح في ذلك يطول فاختصرته وخرج بين يديه
ارباب المناصب واعيان الدولة وامراء الحضرة وجميع خدام اهل الخلافة وسائر

الديوان والطبول تضرب امامه والمسند وراءه محمول على عادتهم في ذلك حتى دخل الديوان
ونزل على طرف الايوان وجلس في الدست وقام لقراءة الشيخ سديد الدولة ابو عبد الله
محمد بن عبد الكريم الانباري ولولا خوف الاطالة لذكرت العهد فانه بديع في بابه لكن
قصدي الاختصار فاعرضت عن ذكره وهو مشهور في ايدي الناس فلما فرغ من قراءته
قرأ القراء وانشد الشعراء وتولى الوزارة يوم الاربعاء ثالث عشر ربيع الاخر سنة اربع
واربعين وخمسماية وكان عالما فاضلا ذا راي صايب وسريرة صالحة وظهر منه
في ايام ولايته ما شهد له بكفايته وحسن مناصحته فشكر له ذلك ولحظ بعين
الرعاية وتوفرت اسباب السعادة له وكان مكرما لاهل العلم يحضر مجلسه الفضلاء
على اختلاف فنونهم ويقرا عنده الحديث عليه وعلى الشيوخ بحضوره ويجري من البحث
والفوائد ما يكثر ذكره وصنف كتبا منها كتاب الافصاح في شرح معاني الصحاح
وهو يشتمل على تسعة عشر كتابا شرح الجمع بين الصحيحين وكشف عما فيه من الحكم
النبوية وكتاب المقتصد بكسر الصاد المهملة وشرحه ابو محمد بن الخشاب النحوي المشهور
في اربع مجلدات شرحا مستوفى في الفقه على مذهب الامام احمد وارجوزة في المقصور
والممدود وارجوزة في علم الخط وغير ذلك وذكر شيخنا عز الدين ابو الحسن علي
بن محمد المعروف بابن الاثير الجزري في تاريخه الصغير الاتابكي في فصل حصار الملك
محمد وزين الدين بغداد وذلك في ذي القعدة من سنة ثلث وخمسين وخمسماية ان المقتفي
لامر الله جد في حفظ بغداد وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الامر القيام الذي
عجز عنه غيره قال وامر المقتفي فنودي ببغداد من جرح في القتال فله خمسة دنانير فكان
كل من جرح يوصل ذلك اليه فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحا فقال هذا جرح صغير
لا يستحق عليه شيئا فعاد الى القتال فضرب في جوفه فخرجت امعاؤه فعاد الى الوزير فقال
له يا مولانا الوزير يرضيك هذا فضحك منه وامر له بصلة واحضر من عالجه انتهى كلام ابن
الاثير قلت وهذا محمد بن محمود بن محمد بن ملك شاه السلجوقي وزين الدين هو ابو الحسن
علي بن بكتكين المعروف بكجك والد مظفر الدين صاحب اربل وقال عز الدين بن الاثير ان الملك
اسمه محمد شاه وان هذه القضية كانت في اثنين وخمسين والله اعلم وذكر ذلك ابن
الجوزي في كتاب شذور العقود وهو اخذ لا انها المدة وهو بها وقد ذكرت محمد شاه
في ترجمة ابيه وتوفي الامام المقتفي لامر الله ابو عبد الله محمد بن المستظهر ليلة الاحد
ثاني شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسين وخمسماية وبويع ولده المستنجد بالله
ابو المظفر يوسف فدخل عليه وبايعه واقره على وزارته الى حين وفاته ومدحه جماعة من
اماثل عصره منهم ابو الفوارس سعد بن محمد المعروف بابن صيفي الملقب حيص بيص
المقدم ذكره له فيه مدايح منتخبة من ذلك قوله

يهز حديث الجود ساكن عطفه ... كما هز شرب الحي صهباء قرقف
وبرسوا اذا طاشت حنا القوم وانبرت ... صبا الذرى من زعزع الخطب رجف
صبور ومر الدنايا احجر كل سنة ... ولكنه بالمجد صب مكلف

Copyright © King Saud University